النزعة ـ الرجل الذى ينفجر فى التاريخ كلما احتاجت الحياة الى إطلاق قنابلها للنصر

* * *

والعادات هى الماضى الذى يعيش فى الحاضر ، وهى وحدة تاريخية فى الشعب ؛ تجمعه كما يجمعه الأصل الواحد ؛ ثم هى كالدين فى قيامها على أساس أدبى فى النفس ، وفى اشتمالها على التحريم والتحليل ؛ وتكاد عادات الشعب تكون ديناً ضيقاً خاصاً به ، يحصره فى قبيله ووطنه ، ويحقق فى أفراده الألفةَ والتشابك ، ويأخذهم جميعاً بمذهب واحد : هو إجلال الماضى

وإجلال الماضى فى كل شعب تاريخى ، هو الوسيلة الروحية التى يستوحى بها الشعبُ أبطالَه ، وفلاسفته ، وعلماءه ، وأدباءه ، وأهلَ الفنّ منه ؛ فيوحون اليه وحْى عظائمهم التى لم يغلبها الموت ؛ وبهذا تكون صورهم العظيمة حيّةً فى تاريخه ، وحيّةً فى آماله وأعصابه

والعادات هى وحدها التى تجعل الوطن شيئاً نفسيّاً حقيقياً ؛ حتى ليشعر الانسان أن لأرضه أمومةَ الأم التى ولدته ، ولقومه أبوة الأب الذى جاء به إلى الحياة . وليس يعرف هذا إلا من اغترب عن وطنه ، وخالط غير قومه ، واستوحش من غير عاداته ؛ فهناك يُهنالك يثبت الوطن نفسه بعظمة وجبروت كأنه وحده هو الدنيا

وهذه الطبيعة الناشئة فى النفس من أثر العادات هى التى تنبه فى الوطنى روحَ التميز عن الأجنبى ، وتوحشُ نفسه منه كأنها حاسّة الأرض تنبه أهلها وتنذرهم الخطر

ومتى صدقت الوطنيــة فى النفس ، أقرّت كلّ شىء أجنبى فى حقيقته الأجنبية ؛ فكان هذا هو أولَ مظاهر الاستقلال ، وكان أقوى الذرائع إلى المجد الوطنى

* * *

وباللغة والدين والعادات ، ينحصر الشعب فى ذاته السامية بخصائصها ومقوّماتها ؛ فلا يسهل انتزاعُه منها ولا انتسافُه من تاريخه ؛ وإذا أُلجئ إلى حال من القهر ، لم ينخذل ولم يتضعضع ، واستمر يعمل ما تعمله الشوكة الحادة : إن لم تترك لنفسها ، لم تعط من نفسها إلا الوَخْز ... ...

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

٢ ـ النهضات القومية العامة

فى أوربا وفى الشرق

للدكتور عبد الرزاق السنهورى

عميد كلية الحقوق ببغداد

وإذا كانت حركة الرابطة الوطنية بقيت قوية عنيفة فى أور طوال القرن التاسع عشر كما قدمنا ، فان هذه الحركة قد اقتر بها حركة رابطة الجنس ، ولم تتعارض الحركتان . فان الو الفرنسى والوطن الايطالى والوطن الاسبانى ، وغير هــذه الأوطان اللاتينية ترعرعت واشتدت ولم تتعارض مع الجا اللاتينية ؛ على أن اتفاق رابطــة الوطن مع رابطة الجنس يف رائعاً أخاذاً إذا انتقلنا إلى الشعوب الجرمانية ؛ فكل شعب وطنه ؛ وكثيراً ما حاربت بروســيا فى الماضى دولاً أخ جرمانية ؛ وكثيراً ما حاربت النمسا وانتصرت عليها ، ومع ذلك فان الشعوب الجرمانية لا ينسيها الاغراق فى وطنيتها أ تنتسب جميعاً إلى جنس واحــد ، وأن دماً واحداً يجرى عروق الجميع

على أن ائتلاف رابطة الوطن مع رابطة الجنس يختلف ق وضعفاً . فالرابطتان أضعف ما تــكونان ائتلافاً إذا كانت راب الوطن قوية متماسكة ، تستطيع القيام على رجليها دون حاجة معين ؛ والمثل لذلك الوطن الفرنسى والوطن الايطالى ، والرابطة أقوى ما تــكونان ائتلافاً إذا ضــعف وطن ، فيستمسك بو آخر قوى من جنسه ، كما هو الحال بين النمسا وألمانيا ، وكذل إذا كان كل وطن ضعيفاً بذاته قوياً باجتماعه مع الأوطان الأخر من جنسه ، كما هو الحال بين الأقطار العربية ؛ وأخيراً إذا اندمج جنسيات متعددة فى أمبراطورية واحــدة ، ثم أخذت ه الأمبراطورية المصطنعة فى الانحلال ، فان حركة الجنسيات تقو فى هذه الحالة ، وتتمخض عن حركات استقلالية ، كما وقع ه الأمر للأمبراطورية النمسوية وللأمبراطورية العثمانية

* بقية المحاضرة الأولى من سلســلة المحاضرات التى ألقاها الأست السنهورى فى مدينة بغداد فى بهو أمانة العاصمة فى ٢٣ مارس سنة ٣٦

وقد آن لنا أن ننتقل إلى المرحلة الثالثة فى النهضات القومية وبية ، وهى المرحلة الحاضرة ، وقد بدأت منـذ فجر القرن رين ، وبنوع خاص بعد الحرب الـكبرى

الوقت الحاضر : رابطة الوطن والجنس ورابطة الطبقات

نشهد فى الوقت الحاضر فى أوروبا صراعاً عنيفاً ما بين لتين ، وكفاحاً مستمراً ما بين نظامين من نظم الحكم . أما طان فاحداها رابطة الوطن وتعززها رابطة الجنس ، والثانية لة الطبقات أو الحركة الاشتراكية . وأما النظامان فأحدهما النظام الديمقراطى ، والآخر هو النظام الدكتاتورى

وما بنا أن نعنى بحركة ضعيفة ولدت عرجاء بعد أن تمخضت ا آلام الانسانية من أهوال الحرب الـكبرى ، وتلك هى بطة البشرية ، تنتظم بنى البشر كافة فى جامعة واحدة ، يسمونها وم بعصبة الأمم . فان رابطة البشرية هـذه لا تزال وليداً بين لياة والموت ، فلندع لها بالبقاء ولنتركها جانباً

ولنستعرض الـكفاح الذى نشهده الآن فى أوروبا بين رابطة وطن ورابطة الطبقات

ليس هذا الـكفاح وليد القرن العشرين ، بل هو قد بدأ نذ القرن التاسع عشر ، وقد تعقبنا أصوله فى لمحة سريعة عند ا كنا نتكلم فى تقدم الصناعات الـكبرى الذى قوى هاتين الرابطتين التناقضتين . والآن نعرض لهذا الـكفاح فى شىء من التفصيل ، فنتكلم فى الاشتراكية وقد قامت على رابطة الطبقات ، ثم نتكلم فى الفاشـية والنازية ، وقد قامت الأولى على رابطة الوطن والأخرى على رابطة الجنس

١ — الاشتراكية

بدأت الاشتراكية تتأصـل جذورها فى أوروبا منذ القرن التاسع عشر . وقد نبتت فى تلك التربة الصناعية التى سبق لنا ذكرها ، إذ كثر عدد الطبقات العاملة ، واستغلهم أصحاب رؤوس الأموال استغلالاً تأباه الانسانية . فوجدت الاشتراكية جواً صالحاً تترعرع فيه وتزدهر . على أن المذهب الاشتراكى لم يكن وليد القرن التاسع عشر ، فهو مذهب قديم ، يمكن أن نرجع أصوله إلى أفلاطون الفيلسوف اليونانى المعروف ، وقد كان يقول بالشيوعية فى الملـكيـة وفى الأسرة ، ووضع كتابه «الجمهورية» يؤيد فيه هذا المذهب . وقام فى أوائل القرن السادس عشر توماس مورا يقول بالشيوعية فى المال دون الأسرة ، فى كتابه « جزيرة أتوبيا » . ولـكن الاشتراكيـة لم تأخذ شكلاً علمياً منظماً إلا بقلم زعيمها الأكبر كارل ماركس نبى الاشتراكية فى أواسط القرن التاسع عشر

والاشتراكية فلسفة علمية ولها خطط عملية . أما فلسفتها فنظرة مادية إلى وقائع التاريخ ، وتفسـير هذه الوقائع تفسيراً اقتصادياً محضا . وهذا ما يسمى عادة بالمـادية التاريخية أو بالتفسير الاقتصادى للتاريخ . أما خططها العمليـة فقد انقسم أنصارها بالنسـبة لها إلى فريقين : فريق معتدل يقول بالعمل فى الدائرة الدستورية ، والوصول إلى الحـكم من طريق النظم النيابيـة المشروعة ، أى اتخاذ الديمقراطية وسـيلة لتحقيق الحـكومة الاشتراكية . وفريق متطرف يقول بعدم الجدوى من كل هذه الخطط ، ولا بد من الثورة والانتقاض على الديمقراطية الرأسمالية وهد أركان النظام النيابى ، والاستيلاء على الحـكم بالقوة ، حتى تتحقق الحـكومة الاشتراكية . وكان كارل ماركس قد أسس الدولية الأولى فى سنة ١٨٦٤ فى لندن ، حتى يجمع شتات العمال من جميع أطراف العالم . ثم لما انقسم أشـياعه إلى الفريقين المتقدمى الذكر ، أسس الفريق المعتدل الدولية الثانية ، وأسس الفريق المتطرف الدولية الثالثة ، وهى دولية موسكو المعروفة

وأقول لـكم كلمة موجزة عن المـادية التاريخيـة أو التفسير الاقتصادى للتاريخ ، حتى نتفهم المذهب الاشتراكى من ناحيته الفلسفية . تتلخص هذه المـادية التاريخيـة فى فكرة جوهرية ، هى أن الحاجات المـادية للانسان والعوامل الاقتصادية التى تحيط به هى التى تسـير التاريخ وتكيّف الحوادث . وكل حوادث التاريخ ومراحله المتعاقبة لا يمكن تفسيرها إلا تفسيراً اقتصادياً ؛ وليس للانسانية إلا تاريخ واحد ، هو تاريخها الاقتصادى المـادى ؛ أما الدين ، وأما الأخلاق ، وأما المثـل العليا ، وأما العظمة والبطولة ، فكل هذا شىء مرده إلى المـادة ، تحكمه وتسيطر عليه . فالمذهب الاشتراكى ينظر إلى الحياة كوحدة لا تقبل التجزئة وهى وحدة المـادة لحمتها وسداها

والإ[illegible]كرة الوحدة المادية للحياة توجد فكرة الحتمية ،
[illegible]ير لا مخير ؛ وكل ما يقع فى العالم من حوادث هو من
[illegible]ل الانسان ، ولكنه عمل دفعته اليه الظروف دفعاً ، فلا اختيار
له فيه ولا إرادة . ويقول لنا انجلز شريك ماركس فى تأسيس
المذهب الاشتراكى الحديث : لا تظنوا أن الحركات الفكرية
الكبرى التى تظهر من وقت لآخر هى وليدة أفكارنا ، بل هى
وليدة الظروف الاقتصادية الملابسة ، كان لا بد من وجودها
فوجدت ، وسخر لها أناس يقولون بها . ولو أن مارتن لوثر
مؤسس البروتستانتية لم يوجد لوجد لوثر آخر يدعو إلى ما دعا
اليه لوثر الأول . وماركس نفسه ، إذا كان قد قال بالمادية التاريخية
فذلك لأنها فكرة ولدتها ظروف البيئة الاقتصادية ، وكان حتما
أن يقول بها رجل أراد القدر أن يكون ماركس . وأبطال
التاريخ يولدون كما تولد الحركات الفكرية الكبرى ، تنشئهم
الظروف الاقتصادية ؛ فنابليون وكروميل وقيصر وغيرهم من
عظماء التاريخ جاءوا فى الساعة التى كانوا لا بد أن يجيئوا فيها ،
ولو لم يجيئوا هم بالذات لجاء غيرهم ، فيتغير الاسم ويبقى الرجل .
وكل عصر له أبطاله ، إذا لم يجدهم عفواً فانه يخلقهم خلقاً .
وإذا لم توجد البطولة الحق فى الرجل الزعيم ، فان حاجات الوقت
المادية والمصالح الاقتصادية تنفخ فيه روح بطولة مصطنعة وتجعل
منه رجل الساعة . هذا هو رأى انجلز فى البطولة والأبطال

فالعظمة ليست إذن إلا صنع الجيل وبنت البيئة . أما العوامل
الحقيقية التى تصنع التاريخ صنعاً ، فليست هى بطولة العظماء ،
إنما هى القوات الاقتصادية ، تبدأ فى تغيير الفكر البشرى ، ثم
تدفعه إلى الأمام . وهكذا يرتبط الفكر بالعمل ، ويسوق ذلك إلى
هذا . ومصدر كل من الفكر والعمل إنما هو العامل الاقتصادى ،
مثل ذلك تقدم الصناعات الكبرى وتكدس رؤوس الأموال .
هذا هو العامل الاقتصادى الذى يحكم العالم فى العصر الحاضر .
وقد أوجد هـذا العامل طبقة أصحاب رؤوس الأموال ،
أو البورجوازية ، قوية مسيطرة على أقدار العالم . ولكن هذا
العامل الاقتصادى نفسه أوجد أيضاً طبقة العمال تستغلهم
البورجوازية وتسلبهم ثمرة جهودهم . هذا الوضع الاقتصادى
هو الذى أوجد حركة فكرية عند طبقة العمال ، وقد شعروا بالظلم
يحيق بهم . وهذه الحركة الفكرية هى التى تدفعهم إلى العمل .
فالعامل الاقتصادى هو الذى أوجد البورجوازية ، والبورجواز
هى التى أوجدت العمال ، والعمال هم الذين سيهدمون البورجوازية
وقد كتب كارل ماركس فى منشوره المشهور إلى الحزب الاشتراكى
سنة ١٨٤٨ : « إن البورجوازية لم يقتصروا على صنع الأسلحة
التى ستقتلهم ، بل هم هيأوا أيضاً الرجال الذين سيضربون بهذه
الأسلحة »

فقيام البورجوازية وسيطرتهم على العالم الاقتصادى
وسقوطهم بعد ذلك على يد العمال ، كل هذه حوادث تدفع اليها
الانسانية دفعاً من طريق العوامل الاقتصادية ؛ فالرجال إذن
مسخرون ، علموا أو لم يعلموا ، لخدمة حاجات اقتصادية اقتضتها
البيئة التى يعيشون فيها ، وهم يظنون أنهم يعملون لأغراض
مادية . فلوثر مثلاً كان يعتقد أنه يعمل لمجد المسيح ، والواقع هو
الأمر أن ثورته لم تكن إلا سداً لحاجة البورجوازية الألمانية التى
كانت تستغلها الكنيسة الرومانية . وليس الرجال فى نشاطهم
بوجه عام إلا ممثلين لطبقات اقتصادية ، يجيبون نداءها ، ويسدون
حاجتها . اسمعوا ما يقوله كارل ماركس فى كتابه « بؤس الفلسفة »
رداً على ما كتبه برودون فى كتابه « فلسفة البؤس » : « إن
الروابط الاجتماعية متصلة اتصالاً وثيقاً بقوات الانتاج ، فالناس
إذا حصلوا على قوات منتجة جديدة يغيرون طرق الانتاج ،
وإذا غيروا طرق الانتاج وغيروا كذلك نظام كسبهم العيش
فقد غيروا فى جميع روابطهم الاجتماعية . هذه هى طاحونة اليد
تنتج وسطاً أقطاعياً يسوده التبلاء . أما الطاحونة التى تدور
بالبخار ، فتنتج وسطاً صناعياً يسوده أصحاب رؤوس الأموال .
ونفس الرجال الذين يقيمون روابطهم الاجتماعية على مقتضى
الطرق المادية للانتاج هم الذين يصوغون أيضاً المبادئ والأفكار
والحدود وفقاً لروابطهم الاجتماعية »

فالعوامل الاقتصادية التى تصنع التاريخ فى رأى ماركس وانجلز
هى وسائل الانتاج ، يضاف اليها وسائل النقل وتداول الثروة
والبيئة الجغرافية التى تقوم فيها هذه العوامل الاقتصادية

وكل هذه العوامل الاقتصادية تدور حول نقطة واحدة ،
هى الكفاح ما بين الطبقات . فالكفاح ما بين الطبقات يسود
جميع النظم الاجتماعية : يسود النظام السياسى ، وما تاريخ
الحكومة إلا تاريخ نضال مستمر ما بين طبقة وأخرى تتداول

بيادة والسلطان ؛ يسود النظام القانونى ، وما القانون إلا صورة مكسة من وسائل الانتاج الاقتصادى ، وهو لم يوجد إلا لحماية مصالح الاقتصادية ، أى حماية مصالح الطبقة السائدة ؛ يسود الدين الفلسفة والأدب والأخلاق ، وإذا لم يكن الأصل فى هذا كله مالاً اقتصادياً فان هذه العوامل الأدبية تتطور بعد نشوئها وفقاً لحاجات الاقتصادية ولمصالح المتغلب من الطبقات

ثم ينتقل ماركس وانجلز من بسط النظرية إلى تطبيقها على لحوادث التاريخية . فعندهما أن النظام الأقطاعى هو الذى خلق لعصور الوسطى تسود فيها طبقة النبلاء ، وأن نظام الصناعة لكبرى هو الذى خلق العصور الحديثة تسود فيها طبقة البورجوازية ، وأن الكارثة لا بد واقعة : والكارثة لفظ له مدلوله فى إنجيل الاشتراكية ، فالاشتراكيون يتربصون الدوائر بالبورجوازية ، ويترقبون الوقت الذى سيحين لانتقال محتم إلى عصر جديد تحل فيه الكارثة بالبورجوازية على يد العمال

فماركس يستغل إذن نظريته فى المادية التاريخية ليخدم بها مذهبه الاشتراكى ، فينادى بالكفاح ما بين الطبقات ، ويحاول أن يوحد العمال فى جميع أنحاء العالم ، ويشعلها حربا زبونا بين بنى الانسانية جمعاء ، حرباً تقوم لا بين وطن ووطن ، ولا بين جنس وجنس ، بل بين طبقة وطبقة : بين البورجوازية والعمال ، فتسقط البورجوازية ويسود العمال

ونحن لا نعرض بنقد أو بتحبيذ للمذهب الاشتراكى ونقتصر على أن نستخلص مما قدمناه أن هناك نزعة فى أوروبا وجدت منذ القرن التاسع عشر وقالت برابطة الطبقات ، وعارضت الروابط المبنية على الوطن والجنس ، واعتبرت العمال فى جميع الأوطان ومن جميع الأجناس إخواناً متآلفين . ثم جميعاً خصوم للبورجوازية فى جميع الأوطان ومن جميع الأجناس . وقد أخذت هذه النزعة تشتد شيئاً فشيئاً طوال القرن التاسع عشر ، ثم دخلت فى دور عملى حاسم أثناء الحرب الكبرى ، حيث قامت البلشفية فى الروسيا ، وأصبحت الاشتراكية مذهباً عملياً لنظام قائم من الحكم ، أقامه لينين على أنقاض القيصرية ، بعد أن اقتلعها واجتذها من أصولها . وأوجد انقلاب سنة ١٩١٧ النظام السوفييتى فى الروسيا فى ظروف معروفة ، ولا يزال هذا النظام قائماً فى الروسيا حتى الآن

ويذكرنا القرن العشرون ، بالنسبة لقيام الاشتراكية وانتشارها فى العالم برغم مقاومة الحكومات لها بالقرن التاسع عشر ، بالنسبة لقيام الحركات الوطنية وانتشارها فى أوروبا برغم مقاومة الحكومات الرجعية لها . والشبه غريب بين الحرب الكبرى وحروب نابليون ، وبين مؤتمر فرسايل المحافظ ومؤتمر فيننا الرجعى

على أننا نريد أن نبسط الحقائق كاملة ، فليس من الدقة فى شىء أن نقول إن الاشتراكية بقيت وحدها فى الميدان ، بل يجب أن نفتح أعيننا على ما يجرى الآن أمامنا من صراع عنيف بين الاشتراكية والوطنية . فان الحركات القائمة على رابطة الوطن ورابطة الجنس لم تخمد جذوتها فى أوروبا ، بل هى قد زادت اشتعالاً . وكأن حرب الطبقات التى شهرتها البلشفية فى وجه العالم ، تلك الحروب الشعواء التى أذكى نارها العمال ثم صاروا لها وقوداً ، وهم يريدون من ورائها أن يبسطوا سلطانهم ، وأن يحكموا بالسيف والنار ، تلك الحرب العنيفة القاسية قد استفزت دعاة الوطنية فى أوروبا وألبتهم فوقفوا صفوفاً متراصة أمام هذا العدو المشترك . ووقعت الواقعة ، ونشب عراك دموى بين دعاة الاشتراكية ودعاة الوطنية ، وانضوى دعاة الوطنية فى أقوى مظهر من جهادهم تحت لواء حركتين مشهورتين : هما الفاشية الايطالية تحت قيادة موسوليني ، والنازية الألمانية تحت قيادة هتلر . ووقف كل من هاتين الحركتين سداً منيعاً أمام تيار البلشفية الجارف ، ووقف كل منهما يريد أن يبسط سلطانه .

ونرجىء الكلام فيهما إلى المحاضرة القادمة

عبد الرزاق السنهورى